

الشرط ودلالته الوظيفية

في بعض آيات التكوين والإرادة الإلهية

المدرس الدكتور

محسن طاهر اسكندر

كلية التربية للبنات / جامعة البصرة

المقدمة :

الشرط : أسلوب لغوي ، ينبنى - بالتحليل - على جزأين ، الأول : منزل منزلة السبب ، والثاني : منزل منزلة المسبب ، يتحقق الثاني إذا تحقق الأول ، وينعدم الثاني إذا انعدم الأول ، لأن وجود الثاني معلق على وجود الأول ، نحو قوله تعالى ﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ التغابن/ ١٧ ، فجملة الشرط إذن تتألف من عبارتين لا استقلال لإحدهما عن الآخر . تسمى العبارة الأولى شرطاً وتسمى العبارة الثانية جواباً أو جزاءً ، وهذه الفكرة التامة إنما يعبر عنها بجملة الشرط التي تعتمد في وجودها الشرط والجواب جميعاً.^(١)

وكان عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) يجعل من الشرط وما عطف عليه ، نحو قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ النساء/ ١١٢ جملة واحدة ، فكان يرى الشرط في مجموع الجملتين ، لا في كل واحدة منهما على الانفراد ، ولا في واحدة دون الأخرى فعنده عبارتا الشرط والجزاء جملة واحدة ، لأن العبارتين في جملة الشرط ترتبطان بواسطة أداة الشرط ارتباطاً وثيقاً ، لا يتصور معه استقلال إحدى العبارتين عن الأخرى.^(٢) وفي هذا السياق تمكن لنا دراسة الموضوع من خلال التطرق إلى بعض أدوات الشرط بنوعها الجازمة وغير

الجازمة في بعض آيات التكوين والإرادة الإلهية أنموذجاً ، فجاء بحثنا على أربعة محاور :

المحور الأول : تناولت أحكام الجملة الشرطية، وكيف تتألف من ثلاثة أركان : أداة الشرط ، وفعل الشرط ، وجواب الشرط . وهي جملة واحدة . ولا يتم الكلام إلا بالجميع ، لأن الشرط والجزاء عبارة عن جملتين تربط بينهما الأداة ، وبذلك تصير الجملتان جملة واحدة .

والمحور الثاني : درستُ فيه أدوات الشرط وأحكامها ، من حيث إن الدائرة الشرطية في العربية تتسع لعدد من الأدوات بعضها ثابتة الأصالة في تأدية تلك الوظيفة الشرطية ، وبعضها لوحظ تحوله عن معان أخرى ، وله وظائف استعماله متنوعة ، لكنها سواء في تأديتها الوظيفة الشرطية الخاصة به .

والمحور الثالث : تناولت بعض أدوات الشرط بنوعيتها ودلالاتها ، فقد وردت في بحثنا هذا طائفة من الآيات المباركة ، متضمنة لطائفتين من هذه الأدوات ، أدوات الشرط الجازمة وأدوات الشرط غير الجازمة ، فكان منها (أن ، ومن ، وإذا ، ولما ، ولو ، إما) ودلالة كل أداة من خلال سياقها الشرطي .

أما المحور الرابع : درستُ فيه الأنماط الشرطية ودلالاتها ، إذ وردت هناك أنماط شرطية لها صور مختلفة ، ودلالات متباينة ، وأنماط شرطية متعددة بحسب فعل الشرط وجواب الشرط ، ودلالة كل نمط منها ، وما تدل عليه وأخيراً بإسهامي المتواضع هذه أرجو من الله السداد والتوفيق . .

المبحث الأول

أحكام الجملة الشرطية

تأتي الجملة الشرطية بكون وجود الأداة أو عدمها على نمطين هما : الشرط بواسطة الأداة ، والشرط بدون أداة ومن الواضح أن النمط الأول هو السائد في الكلام ، وتتكون جملته من ثلاثة أركان : أداة الشرط ، وفعل الشرط ، وجواب الشرط . وهي جملة واحدة . ولا يتم الكلام إلا بالجميع ، لأن الشرط والجزاء عبارة عن جملتين تربط بينهما الأداة ، وبذلك تصير الجملتان جملة واحدة .^(٣)

يقول ابن السراج (ولا بد للشرط من جواب وإلا لم يتم الكلام وهو نظير المبتدأ الذي لا بد له من خبر)^(٤) أكدت الدراسات الحديثة تقرير تلك الملاحظة ورأت (انك في جملة الشرط إذا اقتصرت على واحدة أخللت بالإفصاح عما يجول في ذهنك ، وقصرت عن نقل ما يجول منه إلى ذهن السامع ، لأن العبارتين في جملة الشرط ترتبطان بواسطة أداة الشرط ارتباطا وثيقا لا يتصور معه استقلال إحدى العبارتين عن الأخرى).^(٥) وقد أخذت الجملة الشرطية أنماطا وأشكالا مرتبطة بالزمن ، أما أدواتها الأساسية في الشرط كما جاء في مباحث النحاة فإحدى عشرة أداة تسمى (أدوات الشرط الجازمة) وهي (إن ، وإذما ، ومن ، وما ، ومهما ، وحتى ، وأيان ، وأين ، وأنى ، وحيثما ، وأي) كلها أسماء ما عدا (إن ، و إذما) فهما حرفان.^(٦) وظهرت أدوات أخرى يقع الخلاف في عدها جازمة عند فريق ، وغير جازمة عند فريق آخر ، مثل (إذا ، لو ، لولا ، كيف ، كلما) أما الطائفة الأولى من أدوات الشرط الجازمة فقد نظر إليها من خلال قرينة الشرط الأساسية وهي الجزم، وهذه الأدوات في العريية هي (كلمات الشرط الجازمة الثابتة الإقدام في الشرطية).^(٧)

وهذه الأدوات بنوعها الجازمة وغير الجازمة تتفق في أمور وتختلف في أخرى ، أشهر الأمور التي تتفق فيها إذ أنها لا تدخل على الأسماء وإنما تحتاج إلى: إما فعلين مضارعين ، أو فعلين ماضيين ، أو فعلين مختلفين ، أو جملة اسمية تحل محل المضارع الثاني وتجزمها الأداة محلاً ، ولا يمكن أن يحل محل الأول شيء ، لأن الأول لابد أن يكون فعلاً مضارعاً أو ماضياً. ومهما كانت صيغة فعل الشرط أو جوابه فإن زمانها لابد أن يتخلص للمستقبل المحض بسبب وجود أداة الشرط الجازمة ، لأن أداة الشرط الجازمة علامة قاطعة على استقبال الفعل بعدها ، أي تحليص زمنه المستقبل المحض سواء أكان الفعل ماضياً أم مضارعاً ، لذا لا يصح في الجملة الشرطية أن تكون حالاً بعد تلك ، لأن الحال لا يصح أن تسبقه علامة استقبال .

ومن المقرر كذلك أن تحقق الجواب ووقوعه متوقف على تحقق الشرط ووقوعه ومعلق عليه ، إذ لا يتحقق المشروط إلا بعد تحقق شرطه ، سواء أكان الشرط سبباً في وجود الجواب والجزاء ، نحو: إن تطلع الشمس يختلف الليل ، أم غير سبب ، نحو: إن كان النهار موجوداً كانت الشمس طالعة ، فوجود النهار ليس سبباً في طلوع الشمس ، وإنما هو ملزم، والجواب لازم له ، ولهذا يقولون: إن الشرط ملزم دائماً والجزاء لازم ، سواء أكان الشرط سبباً أم غير سبب.^(٨)

فإذا وقع بعد الأداة اسم وفي الغالب أن تكون الأداة (إن ، إذا) وجب تقدير فعل مناسب يفصل بينهما بحيث تكون الأداة داخلة على الفعل المقدر لا على الاسم الظاهر.^(٩) نحو قوله تعالى في آيات بحثنا ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ الانشقاق / ٣-٤ ف(إذا) ظرف لما يستقبل من الزمن والأرض فاعل بفعل محذوف يفسره ما بعده ، والتقدير: إذا مدت الأرض مدت ، لأن إذا الشرطية يختص دخولها بالجملة الفعلية ، وما جاء من هذا ونحوه فمؤول ، محافظة على قاعدة الاختصاص

فالشرط عند النحويين ، سياق فعلي وعندهم الجملة الشرطية جملة فعلية ، ولما جاءت بعض التراكيب اسمية تأولوا ذلك كي يبقوا على فعلية السياق.^(١٠) أما طبيعة هذه الأدوات فلها الصدارة في الجملة ولا يمكن أن يسبقها شيء من جملة الشرط ولا من جملة جوابه ، ولها دلالات مختلفة ، فمنها ما وضع في أصله للدلالة على ما يعقل ، ومنها ما وضع للدلالة على الأشياء ، ومنها ما وضع للدلالة على الأمكنة ، ومنها المضاف الذي يصلح للأمور السالفة الذكر ، فتدل على احد المعاني المذكورة على حسب دلالة الأمر المضاف إليه وهي الأداة (أي) فتكون للعاقل ولغيره ، وللزمان والمكان . ومنها ما يختص إما بالأمر المتيقن منه أو المضمون والقرائن وحدها هي التي تعين اليقين أو الظن مع الدلالة على الشرطية في كل حالة .^(١١)

وإذا نظرنا إلى أدوات الشرط نجد الأداة (إن) قد عدت أولى الأدوات الأساسية في الشرط ، إذ يرى الخليل الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) (إني أرى حروف الجزاء قد يتصرفن فيمكن استنفهما ، ومنها ما يفرقه (ما) فلا يكون فيه الجزاء وهذه على حال لا تفارقها المجازاة).^(١٢)

وهذا ما أكده سيوييه (ت ١٨٠هـ) من بعده حين عدها (أم الجزاء)^(١٣) ويرى النحاة أن الجزاء في الحقيقة إنما هو بـ (إن)^(١٤) إذ إن جميع أسماء الشرط متضمنة معناها.^(١٥) حتى إن المغاربة لا يسمون (لولا ، لو) أداة شرط إلا إذا كانت بمعنى (إن).^(١٦) إن الدائرة الشرطية في العربية تتسع لأدوات تتجاوز العدد الذي ذكر . وقال النحاة بهذا ووضعوه تحت تعابير خاصة مثل قولهم (أدوات رتبت ترتيب كلمات الشرط).^(١٧) وأدوات فيها (معنى الشرط أو أدوات فيها رائحة الشرط).^(١٨) لذا نجد هناك ظروفاً تستعمل كأدوات الشرط ويتعامل معها كأدوات لها وظيفة جديدة في سياق معين ،

فتلك الأدوات (لا تدل على معان معجمية ولكنها تدل على معنى وظيفي عام هو التعليق وربط الشرطين).^(١٩)

ومن أحكام الجملة الشرطية أن تكون فعلية ، فعلها وحده هو فعل الشرط سواء كان ماضياً أم مضارعاً أما جملة الجواب فقد تكون فعلية ، وقد تكون اسمية بشرط اقترانها بالفاء أو ما يخلفها ويجب الترتيب بين أجزائها

ويرد فعل الشرط مجزوماً لفظاً إن كان مضارعاً ومحلاً إن كان ماضياً وجازمه في الحالتين (أداة الشرط) الجازمة ، أما جواب الشرط فقد يرد جملة فعلية ، وقد يرد جملة اسمية مقترنة بالفاء الزائدة للربط ، نحو قوله تعالى ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ الزمر/٧ ، إذ أنه (إن كان الجزء أمراً أو نهياً، أو فعلاً ماضياً، أو مبتدأ وخبر فلا بد من الفاء الزائدة للربط) .^(٢٠)

ومن الإحكام الأخرى الواردة في الجملة الشرطية والتي من خلالها أعطيت جمالية رائعة هي حين يجتمع الشرط والقسم يحذف جواب أحدهما لاستغناءه عن الآخر .
نحو قوله تعالى ﴿وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ هود/٧ نجد في النص المبارك حذف جواب الجزء للاستغناء عنه بجواب القسم لأنه إذا جاء في صدر الكلام غلب عليه إذ نجد فعل الشرط (قلت) قد سبق بأداة الشرط (إن) المقترنة بلام التوكيد الموطئة للقسم وجواب القسم (ليقولن) جاء فعل مضارع مؤكد بـ لام ونون وهذه اللام هي الدليل على أنه جواب قسم وليس جواب شرط ، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم أو يكون جواب القسم قد سد مسد الجوابين .

إذ أن من المعروف في القاعدة اللغوية أن كلاً من الشرط والقسم يستدعي جواباً خاصاً به ، يتميز بعلامة أو أكثر يتفرد بها دون الآخر . فجواب الشرط الجازم لا بد أن يكون مجزوماً ، إما لفظاً لكونه فعل مضارع ، وإما محلاً لأنه فعل ماض ، أو لأنه من النوع الذي يجب اقترانه بـ(الفاء) أو (إذا) الفجائية . فتصير الجملة كلها في محل جزم بأداة الشرط ، ولهذا نجد إن اقتران الجملة بهما لدواع بلاغية تفيده توكيداً وتقوية .

فإذا اجتمع الشرط والقسم فالأصل أن يكون لكل منهما جواب ، غير أن جواب أحدهما قد يحذف اكتفاء بجواب الآخر الذي يغني عنه ، ويدل عليه . ولهذا الحذف صور منها : إذا اجتمع الشرط والقسم مع تأخر الشرط ، وعدم وجود شيء قبلهما يحتاج إلى خبر - كالمبتدأ والنواسخ- وفي هذه الصورة يحذف في الأرجح جواب المتأخر منهما وهو الشرط نحو : والله من يراقب ربه في عمله لا يخاف شيئاً . فالمضارع (يخاف) مرفوع لأنه في جملة جوابية للقسم المتقدم ، وليس جواباً للشرط المتأخر المحذوف الجواب ، إذ لو كان هو الجواب لتحتّم جزمه فقيل (يخف). أما إذا تقدم الشرط فالأرجح أن يكون الجواب له وجواب القسم محذوف نحو : من يراقب ربه والله يخشه الناس.^(٢١) إذن نستخلص مما سبق أن اجتماع الشرط والقسم يقتضي الاكتفاء بجواب واحد يكون -على الأرجح -للسابق منهما . أما المتأخر فجوابه محذوف يدل عليه المذكور .

المبحث الثاني

أدوات الشرط وأحكامها

ذكرنا إن الدائرة الشرطية في العربية تتسع لعدد من الأدوات بعضها ثابتة الأصالة في تأدية تلك الوظيفة الشرطية ، وبعضها لوحظ تحوله عن معان أخرى ، وله وظائف استعمالية متنوعة ، لكنها سواء في تأديتها الوظيفة الشرطية الخاصة في التعليق وربط الشرطين . وقد يدخل الترادف والتطابق فيما بينها وهذا له أسبابه ضمن السياق ، ولكنه يعكس حقيقة ثابتة هي أن تلك الأدوات تشترك في وظيفة واحدة ، فالترادف والتطابق واضح في الجملتين مثلا (إن تأتني أكرمك ، وكلما تأتني أكرمك) وفيها تعلقت جملتا جواب الشرط على جملي الشرط ، ولكن الفرق الثانوي المضاف هو التكرار الذي يفيد التركيب الثاني دون الأول .

وقد اكتسبت هذه القيمة الدلالية في التركيب الثاني من الوظيفة الفرعية التي تؤديها الأداة (كلما).^(٢٢) وكذلك مع (إن) فتكون للمحتمل والمشكوك لأنها لا تدخل على متيقن ، أو قد تدخل على المتيقن لكونه مبهم الزمان . ومع (إذا) فيما تجتمع (إن) في مواضعها و(إذا) في مواضع (إن) . فالقارئ وحدها هي التي تعين اليقين أو الظن أو الشك أو الاستحالة مع الدلالة على الشرطية في كل حالة .^(٢٣) وخلاصة القول أن (إذا) تستعمل فيما هو محقق الوقوع ، و (إن) تستعمل فيما هو مشكوك فيه .^(٢٤) وقد ذكرنا أوجه الاتفاق فيما بين أدوات الشرط السالفة ، ولكن هناك أوجه وأمر مختلف فيها أدوات الشرط منها : الاختلاف في ناحية الاسمى والحرفية ، ومن ناحية اتصالها بـ(ما) الزائدة وعدم اتصالها ، وفي ناحية إعرابها ، وفي ناحية معناها ودلالاتها.^(٢٥)

وهذه أدوات شرط تختلف فيما تدل عليه . وعليه فإن (إن) و(إذا) (للاستقبال ، أما (لو) فهي للمضي ، إلا ترى انك إذا قلت: إن تجتهد تنجح ، فان هذه دالة على الاستقبال وكذلك (إذا) قال تعالى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ الانشقاق/١ وقال تعالى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ الانفطار/١ وهو حديث عن المستقبل وتقول عنها : ظرف لما يستقبل من الزمان . ولكن حينما نقول في لو : لو زرتني أكرمك ، فمعنى هذا أنه لو كان منك الزيارة في الماضي ، لكان مني الإكرام . فالشرط الذي تدخل عليه (لو) ينبغي إن يكون ماضيا .^(٢٦)

إذن (إن وإذا) تشتركان في الاستقبال و (لو) تختص بالماضي ، ولكن مع اشتراك (إن) و (إذا) في أمر واحد – وهو الدلالة على الاستقبال فإن بينهما فرقا . وذلك أن فعل الشرط ، إما أن يكون المتكلم جازما بوقوعه او يغلب على ظنه أنه واقع ، ففي هاتين الحالتين تستعمل (إذا) فتقول : أتيك إذا طلعت الشمس ، فأنت جازم بطلوع الشمس ، وقد يكون فعل الشرط مشكوكا فيه – والشك تردد النفس بين شيئين – وقد يرجح عند المتكلم عدم الوقوع . وفي هاتين الحالتين – اعني حالة الشك – تساوي الوقوع وعدمه أو ترجيح عدم الوقوع – تستعمل (إن) فتقول : إن تجتهد تنجح إذا كنت شاكاً في اجتهاد المخاطب ، أو كان اجتهاده أمراً مرجوحاً عندك

إذن نستعمل (إن) إذا كان المتكلم غير جازم بوقوع الشرط ونستعمل (إذا) حين يكون المتكلم جازماً بوقوع الشرط ، أو يغلب على ظنه وقوعه.^(٢٧) وفي كتاب الله خير ما يجلي لنا هذه القضية ، ويقفنا على ما فيها من دقة وروعة ، وبلاغة في التعبير ، نحو قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ غافر/٦٨ وقال تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ هود/٤٠ وقال تعالى في استعمال (إن) ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا

أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ هود/١٤ من خلال الملاحظة في النصوص المذكورة نجد الآيات التي تصدرت بـ (إذا) تتحدث عن الإرادة التكوينية وعن حقيقة الخلق والإنشاء والإبداع ، وهي حقيقة مطلقة واقعة دون شك ، وان هي إلا إرادة يتمثل اتجاهها إلى الخلق في كلمة (كن) فإذا الوجود ينبثق على أثرها (فيكون) فتبارك الله أحسن الخالقين .. وفي الآية/٤٠ من سورة هود إذ تتحدث عن مشهد التعبئة عندما حلت اللحظة المرتقبة (فإذا جاء أمرنا) فلما حدث هذا (قلنا: احمل فيها من كل زوجين اثنين) فهو واقع لا محال .

وهكذا عند الاستقراء نجد أن (إذا) تستعمل – في الغالب – في كتاب الله لما هو محقق الوقوع ، ولذا يكثر دخولها على الفعل الماضي . أما الآيات التي تصدرت بـ (إن) نجدها تتحدث عن مشيئة الله وعلمه بمكونات الضمائر ، فهو المجازي عليها والمتصرف في مصائر العباد بما يشاء من الرحمة والعذاب .. فنجد (إن) تتحدث غالبا فيما هو ليس بمحقق أو نادر الوقوع .

وإذا أردنا أن نعلم بمجال موقع كل من الأداتين والاطلاع على موضعها لكي لا نستعمل إحداهما مكان الأخرى فانظر إلى قوله تعالى في حديثه عن الخصب والنعمة والجوع والبلاء في آل فرعون ، إذ قال تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائَرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف /١٣١ كيف دخلت (إذا) على الماضي ، لأنه محقق الوقوع ، وذكرت بجانب الحسنة ، وهي أمر حاصل لا محالة ، ودخلت (إن) على المضارع وذكرت بجانب السيئة النادرة الوقوع !؟

ولا ننسى سر تعريف لفظة (الحسنة) وتنكير (السيئة) ولنستمع إلى الزمخشري ليطلعنا على دقائق أي الذكر بقوله ((فان قلت، كيف قيل (فإذا جاءتهم الحسنة) بـ (إذا)

وتعريف الحسنة ، و(إن تصبهم سيئة) بـ (إن) وتنكير السيئة ؟ قلت ، لأن جنس الحسنة وقوعه كالواجب لكثرة واتساعه ، وأما السيئة فلا تقع إلا في الندرة ، ولا يقع إلا شيء منها ومنه قول بعضهم : قد عدت أيام البلاء فهل عدت أيام (الرخاء؟؟) (٢٨)

وأدوات الشرط كثيرة فمنها الجازمة ومنها غير الجازمة ، ولكن أولى الأدوات الأساسية في الشرط هي (إن) وقد عدها سيوييه (أم الجزء). (٢٩) لذا نرى جميع أدوات الشرط متضمنة لمعناها . وقد فرقت المباحث النحوية المعاصرة بين أداة الشرط فيما تقتصر على تأدية وظيفتها في التعليق والربط الشرطي في الجملة الشرطية ، وفيما هي أداة تجاوزت تلك الوظيفية إلى تأدية معنى معين كانت قد استعملت فيه قبل استعمالها في الشرط ، وهي كنيات تستعمل لتدل على الأشخاص والأشياء ، والأزمنة والأمكنة ، ثم استعملت في الشرط لتؤدي وظيفة الربط والتعليق بين عبارتي الشرط والجواب. (٣٠)

ومن الأحكام الأخرى التي تتعلق بأدوات الشرط هو أن أداة الشرط تكون مبتدأ والجملة الشرطية تكون خبراً ، وتكون من نوع الخبر الذي لا يتم المعنى بنفسه مباشرة مع المبتدأ ، وإنما يتممه بمساعدة شيء آخر يتصل به والجملة الشرطية لا تتممه إلا بملاحظة الجملة الجوابية المترتبة عليها. (٣١)

ومن الأحكام الأخرى التي تخص أدوات الشرط أنه لا يحذف بعدها فعل الشرط ، مع بقاء فاعله ظاهراً وبعده الفعل المفسر للمحذوف ، إلا إذا كانت أداة الشرط (إن و إذا) فيكثر حذفه بعد كل منهما ، حتى قيل أن حذفه في تلك الصورة بوصفها السالف واجب ولكن بقاءه - برغم قلته - جائز وذلك لتعدد النصوص الواردة به والتي لا تحتاج إلى تأويل ، ومن أمثلة الحذف بعد (إذا) الشرطية قوله تعالى وقد

أخرجها بعض النحاة من الشرط إذا كانت مسبقة بـ(حتى) ، والصواب انها شرطية بدليل اقتران جوابها بالفاء^(٣٢) ، كقوله تعالى ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَتَّمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَمَا مِنَّا بَعْدُ وَإِذَا فِدَاءٌ﴾ محمد/٤ ، وقوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ مريم/٧٥ وقال تعالى في وصف يوم القيامة ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ﴾ الانفطار / ١- ٥

ومن الأحكام الأخرى التي تتعلق بأدوات الشرط هو أن تدخل عليها (ما) الزائدة ، نحو (إذا ما) و (إِمَّا) و (متى ما) او (حيثما) و (أينما) وقد ذهب النحاة فيها إلى أنها تؤدي غرضين:

الأول: إفادة الإبهام والعموم، وتتصل بها (ما) الزائدة فتزيدها إبهاما. نحو (سأزورك إذا جن الليل) فالراجح أن يكون القصد ليل يومك ذاك أما إذا قلت (سأزورك إذا ما جن الليل)فانه لا يتعين ليل ذلك اليوم ، بل أصبح الكلام يحتمل الليلي الأخرى القابلة ، وذلك لان (ما) أبهمتها .^(٣٣)

والثاني إفادة التوكيد ، لذا يقول سيويه إنها تأتي للتوكيد نحو(متى ما تأتني آتاك).^(٣٤) وجاء في المقتضب إنها تكون زائدة للتوكيد فلا يتغير الكلام بها عن عمل ولا معنى فالتوكيد في هذه الحروف وفي نظائرها.(٣٥) ومعنى التوكيد في هذه الحروف اظهر من الإبهام في الاستعمال القرآني فأنا لا نرى إبهاما في قوله ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فصلت/٢٠ فهذا دليل ظاهر على إنها تفيد التوكيد ، فشهادة السمع وسائر الجوارح من المعاني القوية التي لا يقتضيها الإبهام.

المبحث الثالث

أدوات الشرط ودلالاتها

وردت في بحثنا هذا طائفة من الآيات المباركة ، متضمنة طائفتين من هذه الأدوات فكان منها (أن ، ومن ، وإذا ، ولما ، ولو ، وأما) ويمكن أن نوضحها على النحو الآتي

١. (إن) :

تستعمل (إن) في المعاني المحتملة الوقوع والمشكوك في حصولها ، والنادرة ، والمستحيلة وسائر الافتراضات الأخرى ، فهي لتعليق أمر بغيره عموماً. (٣٦)

فمن المعاني المحتملة الوقوع قوله تعالى ﴿فَإِنْ قَاتَلْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ البقرة/١٩١، ومن المعاني المشكوك في حصولها نحو قوله تعالى ﴿وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ الأعراف/١٤٣، والمعاني المفترضة التي لا وقوع لها قوله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٍ﴾ القصص/٧١، ومثله قوله تعالى ﴿وَأِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ الطور/٤٤، ومن المعاني المستحيلة قوله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ الزخرف/٨١ ومثله قوله تعالى ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ الرحمن/٣٣

جاء في (الكليات): (إن) الشرطية تقتضي تعليق شيء ، ولا تستلزم تحقق وقوعه ولا إمكانه ، بل قد يكون ذلك في المستحيل عقلاً ، كما في قوله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ الزخرف/٨١ ومثله قوله تعالى ﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ

تَبْتَغِي نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَأْيَةٌ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿الأنعام/٣٥﴾. (٣٧)

لقد ذكرنا إن (أن) تستعمل في المعاني المحتملة المشكوك كونها ، ولكن ربما ورد بعدها المتيقن قليلاً ، وذلك نحو قوله تعالى ﴿وإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ﴾ البقرة/٢٣ وقوله تعالى ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنِ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ آل عمران/١٤٤ وهو ميت لا محالة . (٣٨) وجاء في شرح ابن يعيش : " وتقول من ذلك (إن) مت فاقضوا عني ديني) وإن كان موته كائناً لا محالة فهو من مواضع (إذا) إلا أن زمانه لما لم يكن متعيناً ، جاء استعمال (إن) فيه قال تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنِ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ آل عمران/١٤٤" (٣٩) وجاء في الطراز في (إن) لا تقع في المواضع المحتملة المشكوك فيها ، قال تعالى ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ الأنفال/٦١ ، وقال تعالى ﴿وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك﴾ والى الله ترجع الأمور ﴿فاطر/٤﴾ (٤٠)

وجاء في مختصر المعاني (وقد تستعمل (إن) في مقام الجزم بوقوع الشرط تجاهلاً ، كما إذا سأل العبد عن سيده هل هو في الدار ، وهو يعلم أنه فيها فيقول: "إن كان فيها أخبرك" يتجاهل خوفاً من سيده ، أو لعدم جزم المخاطب بوقوع الشرط فيجري الكلام على سنن اعتقاده ، كقولك لمن يكذبك: إن صدقت فماذا تفعل . مع علمك بأنك صادق . أو تنزيل المخاطب منزلة الجاهل لمخالفته مقتضى العلم ، كقولك لمن يؤدي أباه: إن كان أباك فلا تؤذيه . أو التوبيخ .. أو تغليب غير المتصف به ، أي بالشرط على المتصف به ، كما إذا كان القيام قطعي الحصول لزيد ، غير قطعي

لعمرو، فتقول: إن قمتما كان كذا^(٤١) ويكثر وقوع (ما) الزائدة بعدها ، فتدغم فيها النون نطقاً وكتابةً فتصبح (إما) ، كقوله تعالى ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ الإسراء/ ٢٣ ومثله قوله تعالى ﴿فَإِمَّا تَثَقَّفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ * وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ الأنفال/ ٥٧-٥٨ وتسمى بهذه الصورة : إن ، المؤكدة بما.^(٤٢)

وهي من أدوات الشرط يأتي بها لتعليق الجواب على الشرط تعليقاً مجرداً يراد منه الدلالة على وقوع الجواب وتحقيقه ، بوقوع الشرط وتحقيقه ، من غير دلالة على زمان أو مكان أو عاقل أو غير عاقل . وهي (أم حروف الشرط ولها من التصرف ما ليس لغيرها ، إلا تراها تستعمل ظاهرة ومضمرة ومقدرة).^(٤٣)

وكذلك إن جميع أسماء الشرط متضمنة لمعناها وهي (أم الباب) وتجزم ما بعدها فعل الشرط ، أما الجزاء فيختلف فيه فذهب المبرد إلى (أن الجازم للشرط (إن) وإن وفعل الشرط جميعاً عملاً في الجزاء، فهو عنده كالمبتدأ والخبر فالعامل في المبتدأ الرافع له الابتداء ، والابتداء والمبتدأ جميعاً عملاً في الخبر.. وكذلك (إن) هي العاملة في ما بعدها من فعل الشرط وفعل الشرط وحروف الشرط جميعاً عملاً في الجزاء).^(٤٤)

وهي تدخل على جملتين فعليتين فتجعل الفعل الداخلة عليه للاستقبال وإن كان ماضياً وتعلق إحداهما بالأخرى وتربط كل واحدة منهما بصاحبها حتى لا تنفرد إحداهما عن الأخرى، وإنما وجب أن تكون الجملتان فعليتين من قبل ، لان الشرط يكون بما ليس في الوجود ، ويحتمل أن يوجد وإن لا يوجد ، والأسماء ثابتة موجودة لا يصلح تعليق وجود غيرها على وجودها، ولا يخلو هذان الفعلان من أن يكونا

مضارعين ، أو ماضيين ، أو أحدهما ماضياً والآخر مضارعاً . فإن كانا مضارعين كانا مجزومين وظهر الجزم فيهما ، وإن كانا ماضيين كانا مثبتين على حالهما وكان الجزم فيهما مقدراً.^(٤٥) وتستعمل (إن) في المعاني المحتملة والمشكوك في كونها ، لأن (إن) إنما مخرجها الظن والتوقع.^(٤٦) ولا بد أن يليها الفعل وإذا لم يأت بعدها فعل فيكون على إضمار فعل مقدر يفسره الظاهر ، لأن الشرط لا يكون إلا بالأفعال.^(٤٧) ومن الآيات التي تضمنت (إن) قوله تعالى ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ العنكبوت/ ٦١ نجد أن الأداة قد تصدرت الجملة الشرطية ، فإذا دخلت على الفعل المضارع جزمته وأن دخلت على الفعل الماضي حولته إلى الاستقبال ومن الملاحظ أن بعضاً من هذه الآيات جاء جوابها مقترناً بـ (الفاء) وذلك لأنها قد توسطت بين أمرين السابق منهما هو العلة أو السبب في المتأخر الذي يليها ، ولهذا سميت (فاء السببية) أي معناها الدلالة على أن ما بعدها سبب لما قبلها ، وتوصف بـ (الجوابية) أي أنها تدل على أن ما بعدها بمنزلة الجواب لما قبلها ، إذن هي للدلالة على السببية والجوابية معا .^(٤٨) وقد جاء تركيب (إن) في الجملة مع ملاحظة سيويه (الفعل أن يلي إن أولى).^(٤٩)

٢. (من) :

كناية عن العاقل ، تؤدي وظيفة التعليق والربط بين عبارتي الشرط والجواب.^(٥٠) فتكون شرطاً للعاقل ، قال تعالى ﴿فَمَنْ حَاجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة/ ١٥٨ ، قال سيويه : " (من) وهي للمسألة عن الأناسي ، ويكون بها الجزاء للأناسي ، وتكون بمنزلة (الذي) للأناسي "^(٥١) ولو قال للعقلاء ، أو لذي العلم لكان أجود ، فإنها تستعمل لغير الأناسي من العقلاء ، فقد تستعمل للملائكة ، قال تعالى ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ

وَيَسْتَكْبِرُ فَسِيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ ۖ النِّسَاءُ/١٧٢ ، واستعملها للجن ، إذ قال تعالى ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ الجن/٩ ، وجاء في المقتضب : " تقول في (من) (من يأتي آتاه) ، فلا يكون ذلك إلا لما يعقل ، فإن أردت بها غير ذلك ، لم يكن . فإن قال قائل : فقد قال الله عز وجل ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ۖ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾ النور/٤٥ ، قيل إنما جاز هذا ، لأنه قد خلط مع الآدميين غيرهم بقوله تعالى ﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾ وإذا اختلط المذكوران جرى على أحدهما ما هو للآخر إذا كان في نفس معناه " (٥٢)

جاءت (من) متصدرة الجملة الشرطية في عدة مواضع متفقة مع قرار النحاة في صدارة رتبة الأداة في الشرط ، وقد وضعت في أصلها للدلالة على شيء يعقل - غالبا - فإذا تضمن معه معنى الشرط صارت أداة شرط جازمة . أما الصيغ التي تلت (من) فكانت صيغة (يفعل) نحو قوله تعالى قَالَ اللَّهُ ﴿وَمَنْ يَهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ الحج / ١٨ فهذه الصيغة عدت صيغة أساسية في الدائرة الشرطية لدلالاتها على المستقبل ، وظهور تأثير العامل فيها . أما الصيغة الأخرى الواردة بعد (من) فهي نط (لم يفعل) أي : فعل الشرط المقترن بـ (لم) الجازمة . كقوله تعالى ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ النور / ٤٠ ، وقوله تعالى ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ لقمان / ٢٣ وقد لوحظ أيضا أن جوابها جاء مقترنا بـ (الفاء) لأسباب ذكرت في الحديث عن الجملة الشرطية واقتران الجواب بها، منها انه إما تجرده منها مع وجوب جزمه ، وإما اقترانه بها حينما يكون مثبتاً أو منفيًا بـ (لا) نحو قوله تعالى ﴿فَمَنْ يَأْمُرُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ الجن / ١٣

ومثله قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ طه/١١٢، أي : فهو لا يخاف أنها زائدة للربط المحض الدال على التعليل ، وليس للعطف ولا لغيره ، ولا تفيد معنى إلا عقد الصلة ومجرد الربط المعنوي بين جملة الجواب وجملة الشرط ، كي لا تكون إحداهما مستقلة بمعناها عن الأخرى بعد زوال الجزم الذي كان يربط بينهما. وهي تفيد الترتيب والتعقيب مع دلالتها - في الغالب - على السببية الجوابية في الوقت نفسه . وغالباً ما تقع في جواب نفي أو طلب أو ملحقاتها .. فما بعدها مسبب عما قبلها وجواب له. (٥٣)

٣. (إذا) :

وهي ظرف لزمان المستقبل ، أو أداة تدل على الشرط تنهض بمعان مختلفة بحسب السياق ، وقد تنوعت معاني سياقها ، فيرى أهل المعاني أنها تستعمل مع الأمر المتوقع وقوعه أو المحتمل وقوعه. (٥٤) وهي مثل غيرها من أدوات الشرط تحتاج إلى جملة شرطية وأخرى جوابية وتنطبق عليها كل الشروط والإحكام الخاصة بجملي الشرط والجواب . وهي مثل (إن) الشرطية في كثرة دخولها على الأسماء في الظاهر أما في الحقيقة فهما داخلان على (فعل مقدر) وجوبا ، لأن أداة الشرط لا تدخل إلا على فعل ظاهر أو مقدر. (٥٥)

وتختلف (إذا) عن (إن) لأن (إن) تدخل على ما يشك في حصوله في حين إن (إذا) تدخل على ما هو محقق الحصول ، بالأمر المتيقن منه أو المضمون ، أي المرجح حصوله وتحقيقه ، ولكن الأول هو الغالب ، والقرائن وحدها هي التي تعين اليقين ، أو الظن ، أو الشك ، أو الاستحالة. (٥٦) وهناك مباحث نحوية بعضها دفع إلى أن تخرج (إذا) من أدوات الشرط . (٥٧) أو تحاول بعض المباحث الأخرى أن تضعف فيها خاصيتها الشرطية بأن الشرط لم يترسخ فيها (٥٨) ، ومهما يكن من ذلك فإن المسألة لا

تتعدى كونها أداة شرط تدخل على جملتين ، وفي الغالب أنهما جملتين فعليتين ، كما نجد لها أداة لزم المستقبل لأن الشرط يبنى على المستقبل (وإما (إذا) فلما يستقبل من الدهر وفيها مجازة) .^(٥٩) ولما فيها المجازة فإنها تقلب الزمن الماضي للمستقبل.^(٦٠)

وهناك نصوص مباركة تضمنت (إذا) وأخذت دلالتها على الزمن الاستمراري المتكرر نحو قوله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ الأعراف/٥٧ إذ نجد أن فعلها وجوابها في هذا النص المبارك يقتضي التكرار والاستمرار إذ إنه في كل لحظة تهب الريح وفي كل وقت تحمل سحباً ، وفي كل فترة ينزل من السحاب ماء . ولكن ربط هذا كله بفعل الله تعالى ، فهو الذي يرسل الرياح مبشرات برحمته على وفق النواميس الكونية التي أودعها الله تعالى . فهي عملية متكررة بحسب وقتها الذي أراده الله تعالى لها . ومثله قوله تعالى ﴿إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَطْنَ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا﴾ يونس /٢٤ يصور لنا هذا النص مشهداً حافلاً بالحركة والحياة التي تقع في كل يوم ، ويمر عليها الإحياء دون انتباه . وهذه هي الدنيا التي يستغرق فيها بعض الناس ويضيعون آخرتهم لينالوا منها بعض المتاع وهي في حقيقتها لا أمن فيها ولا اطمئنان ، ولا ثبات فيها ولا استقرار ، فهو مشهد متكرر ومثله قوله تعالى ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ الحج/٥ نجد أن هذه النصوص المباركة تستطرد في تصوير مشاهد الخلق والإحياء في الأرض والنبات . فهي سنن متكررة مطردة تمر في أطوار مختلفة تقتضيها حكمة الخلق والتدبير ، دليلاً على قدرته تعالى و ليس لها دلالة زمنية ثابتة على الزمن الماضي أو المستقبل أو الزمن المستمر ، بل أنه زمن سياقي يتنوع بتنوع القرائن اللفظية والمعنوية المتضمنة ،

جاء في الطراز إن (أن) إنما يكون ورودها في الأمور المحتملة المشكوك في وقوعها كقوله تعالى ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ المائدة/٤٢، وأما (إذا) فإنما تستعمل في الأمور المحققة كقوله تعالى ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا..﴾ وقوله تعالى ((إِذَا الشَّمْسُ كُورَتْ..)) فهذه الأمور كلها محققة ، فلهذا حسن دخول (إذا) فيها " ^(٦١) لذا يقول الدكتور علي فودة : ((إن (إذا) تستعمل في معظم الحالات لمعنى غير المعنى الذي تستعمل له (إن) ، إنها تستعمل في الأمور المتيقنة ، أو التي يكثر وقوعها على حين تستعمل (إن) فيما يحتمل الوقوع وعدمه ، أو في الذي يحدث قليلاً ، وخير ما يؤيد ذلك هو الآيات التي اجتمعت فيها (إن) و(إذا) معاً ، فقد اجتمعتا في آيات يدرك القارئ لها بحسه وضوح هذه الحقيقة (في أكثرها)). ^(٦٢) ، وهذا ما ذكره النحاة على وجه العموم . فإنها تستعمل للمقطوع بحصوله والكثير الوقوع بخلاف (إن) التي أصلها الشك والإبهام أو هو اقل مما يستعمل بـ (إذا) ، ويبدو ذلك واضحاً في استعمال القرآن الكريم . أما الصيغ التي تلت (إذا) في موضوع بحثنا فكانت في الغالب صيغة (فعل) وهذا ما يتفق مع المباحث النحوية على حد قول الدكتور مهدي المخزومي (الغالب في إذا أن يليها (فعل)). ^(٦٣)

٤. (لما) :

وهي من أدوات الشرط غير الجازمة تختص بالماضي ، فتقتضي جملتين ، وجدت ثانيهما عند وجود أولاهما. ^(٦٤) وقيل : فيها حرف وجود لوجود ، وبعضهم يقول: حرف وجوب لوجوب. ^(٦٥) وعدّها سببويه بمنزلة (لو) أنها تقع للأمر الذي قد وقع لوقوع غيره. ^(٦٦) واختلف النحاة بين كونها (ظرفاً) أو أنها (حرف) فذهب ابن هشام إلى أنها ظرف بمعنى (حين) ^(٦٧) في حين إن مذهب سببويه أنها حرف ^(٦٨) ،

وذكرها بعضهم إنها تسمى (لما التعليقية). ^(٦٩) أوهي (ظرف وضع موضع كلمة الشرط). ^(٧٠) أوهي أداة رابطة لوجود شيء بوجود غيره. ^(٧١) وقد وردت هذه الأداة في عدة آيات مباركة منها ، وقد تلتها صيغة (فعل) ، نحو قوله تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الأعراف / ١٤٣ ، ومثله قوله تعالى ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَّهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ البقرة / ١٧، فهنا (لما) اسم شرط غير جازم مبني على السكون في محل نصب على الظرفية الزمنية بمعنى (حين) ^(٧٢) إذن هي رابطة أو حينية متضمنة معنى الشرط في كل تلك الأمثلة الواردة . مثله قوله تعالى ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يونس / ٢٣ ، ومثله قوله تعالى ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الزخرف / ٥٥ وهنا تتفق مع من ذهب إلى ظرفيتها، أما فعل الشرط في النصوص المتقدمة فقد جاء فعلا ماضيا أما جوابها فقد جاء فعلا ماضيا أيضا وهذا ما يتفق مع ما عليه اغلب النحاة في كون (جوابها فعلا ماضيا اتفاقا). ^(٧٣) وقد يأتي جوابها جملة اسمية مقترنة بـ (إذا) الفجائية نحو قوله تعالى ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يونس / ٢٣

٥. (لو) :

وهي حرف امتناع لامتناع ، ومعناها امتناع وقوع الجزاء لامتناع الشرط ، نحو (لو زرتني لأكرمك) فامتنع الإكرام لامتناع الزيارة. ^(٧٤) وتأتي شرطية غير امتناعية نحو قوله تعالى ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ الأنفال / ٢٣ إذ لا يصح أن يقال : امتنع التولي لامتناع الإسماع ، بل هم

متولون على كل حال أسمعهم أم لم يسمعهم ، فهي تدخل على جملتين فتجعل الأولى شرطاً والثانية جزاء ، ولذا من شأنها أن تدخل على الماضي فتجعله مستقبلاً^(٧٥). وتفيد عدم تحقق جملتها فإذا قلت (لو زرعت حصدت) فتفيد عدم الحصاد لعدم وجود الزرع ، هذا هو الأصل في (لو) وقد تدخل على المضارع ، ودخولها عليه لغرض بياني^(٧٦).

وقد تأتي دالة على البعد ، كقوله تعالى ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ النساء/ ٧٨ وكذلك قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ النساء/ ١٣٥ جاء فيه بـ (لو) التي تفيد البعد ، لأن الإنسان أبعد شيء من أن يشهد على نفسه ، والوالدين أو الأقربين. ومثله قوله تعالى ﴿مَا كَانَ النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قَرِيبٍ﴾ التوبة/ ١١٣ فأولى القريبى أولى بالاستغفار من غيرهم فإذا كان منهياً عن ذلك معهم ، فالنهي مع غيرهم أولى وهذا أبعد شيء في النهي.

وقد تأتي معنى التقليل نحو (تصدقوا ولو بظلف محرق)^(٧٧). ومعنى التقليل إنما جاء مما ذكرناه آنفاً وهو إن شرطها بعيد الوقوع . فقوله (ص) (تصدقوا ولو بظلف محرق) يعلمنا ألا نحقر من المعروف شيئاً ، فالظلف المحرق أبعد شيء عن أن يتصدق به ، لكونه قليلاً مرغوباً عنه ، ومع ذلك علينا ألا نحقر الصدقة بها ، لزهدتها ، ونحو (تصدق ولو بتمرة) فأن التمرة بعيدة عن أن يتصدق بها ، لزهدتها ، ومثله (التمس ولو خاتماً من حديد) فخاتم الحديد أبعد شيء عن أن يكون مهراً لامرأة لزهادة قيمته ، ومن هنا دخلها معنى التقليل^(٧٨). وقد وردت في آيات بحثنا هذا لتؤدي وظيفتها على نطاق واسع كأداة للتمني في موضع وأداة شرط في موضع آخر) لو قد تستعمل بمعنى (إن) للاستقبال فحصل فيها معنى التمني^(٧٩) وقال ابن مالك

((هي (لو) المصدرية أغنت عن فعل التمني ، وذلك أنه أورد قول الزمخشري : وقد تجيء (لو) في معنى التمني في نحو (لو تأتني فتحدثني) فقال : إن أراد إن الأصل: (وردت لو تأتيني فتحدثني) فحذف فعل التمني لدلالة (لو) عليه. فأشبهت (ليست) في الإشعار بمعنى التمني)).^(٨٠) ويرى الدكتور المخزومي فيها أن (لو: أداة شرط فيما لا يتوقع حدوثه أو فيما يتمتع تحققه أو فيما هو محال أو من قبيل المحال)^(٨١) لذا ذكرها احد الباحثين في معرض كلامه بأنها قد وضعت في الأصل للدلالة على التمني حينما يكون الأمر مستحيلاً أو في حكم المستحيل ، ثم استعملت للدلالة على الشرط.^(٨٢) وأشار لها بأن معناها الشرط ، لأن الثاني يوقف وجوده على وجود الأول ، فالأول سبب وعلة لوجود الثاني كما كان ذلك في (إن)^(٨٣) ومن ورودها في مجال بحثنا هذا تلاحظ أنها دخلت على الجملة الفعلية والصيغ التي تليها هي صيغة (فعل) وهذا ما يتفق والملاحظة التي ذهبت إلى أن الغلبة فيها دخولها على الفعل الماضي ، نحو قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ الفرقان/٤٥

وكذلك دخولها على الجملة الفعلية التي فعلها مضارع نحو قوله تعالى ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُو﴾ الزخرف/٦٠ ونجد — في الغالب — اقتران جوابها (باللام) والتي تسمى (لام التسوية) كقوله تعالى ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ الزمر/٤ وقوله تعالى ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَاتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ الأنبياء/١٧ وللنحاة رأي حسن في مجيئها . إذ إنها تفيد التأجيل والتأخير والتمهل ، لأنها تدل على أن تحقق الجواب سيتأخر عن تحقق الشرط زمناً طويلاً . وعدم مجيئها يدل على تحقق الجواب سيتأخر عن تحقق الشرط زمناً يسيراً قصير المهلة بالنسبة للمدة السالفة ،

فتحقق الجواب في الحالتين متأخر عن تحقق الشرط كالشأن في الجواب دائماً لكن مجيء اللام معه دليل على أنه سيتأخر كثيراً ، وإن مهلته ستطول بالنسبة له حين يكون خالياً . (٨٤)

بينما يرى الدكتور فاضل السامرائي رأياً غير ذلك إنها لا تحمل التسويف ، بدليل عدم صحة تقديره في تعبيرات كثيرة ، من ذلك قوله تعالى ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ آل عمران/ ١١٠ وليس في هذا معنى التسويف ، ومثله قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ النساء/ ٦٤ وهو تواب رحيم في الحال والاستقبال والمضي ولا يراد به تسويف التوبة عليهم . ومثله قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ المائدة/ ٦٥ ، وليس المقصود تسويف التكفير .

ومثله قوله تعالى ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ الأنعام/ ٩ ومثله قوله تعالى ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ الكهف/ ٧٧ ومثله قوله تعالى ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ المؤمنون/ ٧١ ، فهذا كله لا يحتمل التسويف على رأي الدكتور فاضل السامرائي . (٨٥)

وذهب آخرون إلى أنها لتأكيد ارتباط إحدى الجملتين بالأخرى . (٨٦) وذهب بعضهم أن اللام الواقعة في جواب القسم فقولك (لوزرتني لأكرمك) في تقدير (والله لو زرتني لأكرمك) . (٨٧) وقسم ذهب إلى أنها زائدة مؤكدة وذلك لجواز سقوطها (٨٨) وهنالك رأي آخر لابن الأثير يقول فيه (لا مجيء ذلك إلا لضرب من المبالغة ، وفائدتها في التأليف انه عبر عن أمر يعز وجوده أو فعل يعظم إحداثه ووقوعه جيء بها ، فمن هذا الباب قوله تعالى (لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا) الواقعة/ ٦٥) . (٨٩)

٦. (أما):

حرف شرط وتفصيل وتوكيد ، فهي "كلمة فيها معنى الشرط بدليل لزوم الفاء في جوابها" ^(٩٠) ، وتدل على أمرين تلازمين معهما الشرطية والتوكيد ، ومن ثمة تدل على التفصيل نحو قوله تعالى ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ الضحى/ ٩ .

ومثله قوله تعالى ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ * فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ الواقعة/ ٨٨-٩٤ فهي أداة شرط بسبب قيامها مقام اسم الشرط (مهما) الواجب حذف جملته الشرطية ، فكأنها قائمة مقامه بحيث يمكن حذف (أما) ووضع (مهما) موضعها ، فلا يفسد المعنى ولا التركيب مطلقاً. ^(٩١) وليس من اللازم أن تكون (أما) الشرطية كل استعمالاتها قائمة مقام (مهما) يكتن شيء أو من شيء) بهذا التعبير الحرفي ، فمن الجائز أن تقوم مقام تعبير شرطي آخر مناسب للسياق وللمعنى المراد ، ومن الملاحظ من خلال ورودها في أغلب الآيات المباركة اقتران جوابها بـ(الفاء) الزائدة للربط المجرد ، نحو قوله تعالى ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ السجدة/ ١٩ .

وتأتي في حالات قد يحذف جوابها فتحذف معه كقوله تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ آل عمران/ ١٠٦ والأصل : فيقال لهم : أكفرتم .. ، ويجوز حذفها للدليل ، ويكثر هذا قبل الأمر والنهي ، كقوله تعالى ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ المدثر/ ٢-٣ .

المبحث الرابع

الأنماط الشرطية ودلالاتها

ذكرنا في ما تقدم أن الأداة الشرطية لا تدخل على الأسماء وإنما تحتاج إلى أفعال فإما إلى فعلين مضارعين فتجزم لفظهما مباشرة إن كانا معربين ومحلهما إن كانا مبنيين ، وإما إلى فعلين ماضيين يحلان محل المضارعين وتجزمهما الأداة محلا ، وإما إلى فعلين مختلفين فتجزم المضارع منهما ، وتجزم محل الماضي ، وإما جملة اسمية تحل محل فعل المضارع الثاني ، ولا يمكن أن يحل الأول شيء ، لان الأول لابد أن يكون فعلاً مضارعاً أو ماضياً . وقد وردت هنالك أنماط شرطية لها صور مختلفة ، منها نحو قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً ﴾ الأعراف / ١٨٩ ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ ﴾ فصلت / ٣٩ يرى سيبويه ذلك ((فأحسن الكلام أن يكون الجواب (افعل) لأنه نظيره من الفعل ، وإذا قال (فعلت) فأحسن الكلام أن تقول (فعلت) (لأنه مثله))^(٩٢) ففي هذا النمط يتفق فعل الشرط مع جوابه وهذه الصورة وردت بشكل متكرر في آيات بحثنا ، وقد عرض ابن جني (ت ٣٩٢هـ) لهذا النمط المتكون من فعلين ماضيين في محاولة لتوضيح الفرق بينه وبين النمط الشرطي المكون من جملتين فعليتين فعلهما مضارع بقوله ((لأن الشرط معلوم انه لا يصح إلا مع الاستقبال يعني (الفعل المضارع) جئت بلفظ الماضي الواجب تحقيقاً للأمر وتثبيتاً له أي : أنه وعد موفى به لا محالة كما أن الماضي واجب لا محالة ..))^(٩٣) وهذا يعني إن صيغة الفعل الماضي تفقد دلالتها الزمنية في الشرط متطابق في الدلالة هذه مع صيغة المضارع ، والتعبير في الصيغتين لكل واحد منها دلالة خاصة به ، وقد التفت إلى ذلك عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) بقوله ((إنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه فينظر في الخبر.. وفي الشرط والجزاء ، إلى

الوجوه التي تراها في قولك (إن تخرج اخرج) و(إن تخرج فأنا خارج) و (وأنا خارج إن خرجت) و (أنا إن خرجت خارج) فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجيء به حيث ينبغي له))^(٩٤)

وتابع ابن جني المعاصرين في تفسيرهم الفروق الدلالية بين الأنماط الشرطية الفعلية . فذكر الدكتور مصطفى جواد (إن الفعل المعبر عنه بفعل الشرط إذا كثر حدوثه استعمل الماضي ، وإذا قل حدوثه استعمل المضارع ، فالماضي أولى بالكثير لأنه كالحادث ، والمضارع أولى بالقليل لأنه لم يحدث) .^(٩٥)

ويقرب ذلك من رأي الدكتور المخزومي بقوله (أن المتكلم باستعمال صيغة الماضي يومهم السامع برجحان احد الطرفين على الآخر)^(٩٦) ثم إن الفعل الماضي في هذه السور المباركة يجزم محلاً لأنه محمول على المضارع المجزوم لفظاً فيكون مبنياً كالشأن في الأفعال الماضية ، ولكنه في محل جزم لأنه فعل الشرط أو فعل الجواب.^(٩٧) باستقراء هذا النمط نجد الصورة التي عبر عنها ، حيث عبرت عن ارتباط بالزمن الماضي، وعند حدث مضى ، ومن ثم هذا النمط يحتوي على خصائص بنائية ودلالية ، فعند فحص الظواهر اللغوية المتصلة بهذا النمط في موضوع بحثنا في قوله ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً﴾ الأعراف / ١٨٩ فان المعنى الذي عبر عنه سبحانه من خلال هذه الصورة النمطية هو تصوير العلاقة الأولية بين الزوجين ، تنسيقاً لصورة المباشرة مع جو السكن ، وترقيقاً لحاشية الفعل حتى يبدو امتزاج طائفين لا التقاء جسدين ، إجماء للإنسان بالصورة (الإنسانية) في المباشرة ، وافتراقها عن الصورة الحيوانية الغليظة .^(٩٨)

أما الدلالة التي أشارت إليها الصورة النمطية في سورة الكهف ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾ الآية / ١٨ إذ إنها تصور مشهداً عجيباً عن حياة

الفتية في كهفهم وهم يشيرون الرعب في قلب من يطلع عليهم إذ يراهم نياماً كالأيقاز ، وذلك من تدبير الله كي لا يعيث بهم عابث.^(٩٩) أما الدلالة التي أشير إليها في سورة فصلت ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الآية ٣٩ تشير إلى دقة التعبير القرآني حول خشوع الأرض وسكونها قبل نزول المطر ، والخشوع والتصاغر استعير لحال الأرض حال خلوها عن المطر والنبات ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وكأنها هي حركة شكر وصلاة على أسباب الحياة ، وذلك أن السياق الذي وردت فيه هذه الآية سياق خشوع وعبادة وتسبيح وهذه الحركة هي المقصودة هنا لأن كل ما في المشهد يتحرك حركة العبادة.^(١٠٠) وهناك صورة شرطية أخرى جاءت في قوله تعالى ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ الإنعام ١٢٥/ إن هذا التركيب المكون من فعلين مضارعين عده النحاة التركيب الأساس في الشرط ، وهو في سياق أدوات الشرط الجازمة وصيغة المضارعة الدالة على المستقبل ويكون فيها الفعل مجزوماً .

وهناك رأي للدكتور المخزومي يذهب فيه ((إن الشرط خلو من الدلالة على الزمان أكان على (يفعل) أم على (فعل) (...)).^(١٠١) وقد بني على هذا الرأي جزم المضارع في الجملة الشرطية ((فلما كانت صيغة (يفعل) في الشرط لا دلالة لها على الزمان جازمت لأنه صيغة (يفعل) إما أن تدل على الحاضر فترفع ، أو تدل على المستقبل فتتنصب ، فإذا دلت على غير الحاضر والمستقبل لم يكن فيها غير الجزم ، وصار الجزم شركة بين (يفعل) الدالة على الماضي نحو (لم يفعل) و(لما يفعل) و(لا يفعل) التي لا تدل على الزمان البتة كالتي بعد أدوات الشرط)).^(١٠٢)

أما الدلالة المعنوية التي انصرف إليها هذا النمط فتوزعت بين النصيح والإرشاد والحكمة مع دلالة الحدث على الاستمرار والتردد ، أما في قوله تعالى «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ..» الإنعام / ١٢٥ إذ أراد الله تعالى في حكمته التوجيه في الإيمان والنصح على التمسك به ، والزجر عن الكفر والابتعاد عنه فمن يرغب في الهدى ويتجه إليه (يشرح صدره) بأن يثبت عزمه عليه ويقوي دواعيه على التمسك به ، ويزيل عن قلبه وساوس الشيطان، وإنما يفعل ذلك لطفاً له ، ومناً عليه ، أما من يرغب عن الهدى فيجعل كفره في صدره ضيقاً حرجاً عقوبة له على ترك الإيمان و(يجعل صدره ضيقاً حرجاً) بأن يمنعه الألفاف التي ينشرح لها صدره لإقامته على كفره .^(١٠٣) وقد وردت هناك صورة نمطية أخرى يكون فعل الشرط فعلاً ماضياً وجوابه فعلاً مضارعاً . نحو قوله تعالى «وَلَمَّا قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ» هود/ ٧ نجد جواب الشرط جاء فعلاً مضارعاً مقترناً بلام جواب القسم ، وجواب الجزاء مستغني عنه بجواب القسم لأنه إذا جاء في صدر الكلام غلب عليه ، وفعل المضارع إذا جاء مبنياً على الفتح لاتصاله بنون التوكيد ، وانه إذا اجتمع الشرط والقسم فالأصل أن يكون لكل منها جواب . غير أن جواب احدهما قد يحذف اكتفاءً بجواب الآخر الذي يغني عنه ويدل عليه.^(١٠٤)

ومن الملاحظ أن صورة هذا النمط قليل ورودها في آيات بحثنا هذا ، لذا يقول سيوييه : إن المضارع المرفوع بعد فعل الشرط الماضي – مثل : إن رأيتني تميلٌ عني ... ، ليس هو جواب الشرط ، وإنما هو دليل على الجواب ، وتسميته بالجواب : تساهل ، أو مجاز لدلالته على الجواب ، والجواب الحقيقي محذوف ، وهذا المضارع المرفوع قد تأخر مع فاعله عن موضعهما الأصلي الذي يسبق أداة الشرط . والأصل

عنده : تميل عني إن رأيتني تمل . فالجواب محذوف دل عليه جملة : (تميل عني). وهذه الجملة المتقدمة على أداة الشرط قد تركت موضعها وجاءت متأخرة عن الجملة الشرطية ، ففي الكلام أمران ، حذف الجواب ، وتأخير ما يدل عليه . وعلى هذا لا يجوز جزم ما عطف على هذا المضارع ، ويجوز أن يفسر ناصباً للاسم الذي قد يكون قبل الأداة ، مثل : محمد إن جاء أكرمه وأرعاه . أما الكوفيون فيرون إن المضارع وما يتصل به هو الجواب ولكن على تقدير (الفاء) التي تدخل على الجواب أحيانا ، فتقوم في إفادة الربط بين جملتي الشرط والجواب مقام جزم الفعل .^(١٠٥)

وقد وردت للشرط صورة نمطية أخرى يكون فعل الشرط فعلاً ماضياً أو مضارعاً وجوابه يكون جملة اسمية كقوله تعالى ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ الزمر/٧. ومن صور هذا النمط الشرطي اقتران جواب الشرط بـ (الفاء) الرابطة التي تفيد ربط وتقوية الجملة الشرطية ولكي لا تكون جملة احدهما مستقلة بمعناها عن الأخرى بعد زوال الجزم الذي كان يربط بينهما ، فهي للربط المحض الدال على التعليل ، وليس للعطف ولا لغيره .^(١٠٦) فلهذه الفاء وظيفة بنائية وهي عقد الصلة ، والربط بين أجزاء جملة الشرط . أي إذا كان الجواب لا يصلح أن يكون شرطاً وجب اقترانه بالفاء ، وقد حدد ابن هشام تلك المواضع .^(١٠٧)

وأورد سيبويه ملاحظاته عنهما عموماً منها : أنها تضم الشيء إلى الشيء فتجعله متسقاً بعضه اثر بعض ، ومنها إن هذه (الفاء) تأتي للتعليل ولا يكون الجواب إلا بها.^(١٠٨) وأورد النحاة من بعده ملاحظاتهم حولها ، وهي لا تخرج في إطارها عما لاحظته سيبويه فيها.^(١٠٩) ومن الآيات التي وردت في هذه الصورة النمطية قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يونس/١٠٤ أراد

أن يبين من خلال هذا النمط إن العقيدة الحقّة هي في نفي الشرك ، وترك عبادة الأوثان بكل قوة ، وتطرقت إلى بيان دليل ذلك ، دليل الفطرة ، ودليل العقل لنفي الشرك والشفعاء من الأوثان ، ورجع الأمر كله لله ، وسننه المقدرة التي لا يملك أحد تحويلها ولا تبديلها.^(١١٠) وقوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ غافر/ ٦٨ فأراد الله تعالى أن يبين من خلالها على نفاذ قدرته في الحياة والموت وبالعكس ، وإن نقل هذه الأجسام من بعض هذه الصفات إلى صفة أخرى لم يتعب في ذلك التصرف ، ولم يحتج إلى آلة وأداة ، وإنما أمره إذا قال له (كن فيكون).^(١١١) إذن تلك أهم الأنماط الشرطية ودلالاتها الوظيفية الواردة ، وقد تبين لنا من ذلك مفهوم الشرط ، وصوره البيانية والأنماط التي يرد عليها . كما توصلنا إلى المعاني الوظيفية لبعض أدوات الشرط ودلالاتها وكيفية استعمالها في الشرط لتؤدي وظيفتي الربط والتعليق بين عبارتي الشرط والجزاء .. وختاماً أرجو من الله إن يوفقني فيما ذهبت إليه ، ومن الله السداد والتوفيق.

هوامش البحث :

- (١) ينظر: في النحو العربي نقد وتوجيه ٢٨٤
- (٢) ينظر: دلائل الإعجاز ١٨٩
- (٣) ينظر: مغني اللبيب ٩٦/١
- (٤) الأصول في النحو ١٨٥/٢
- (٥) في النحو العربي نقد وتوجيه ٢٨٥
- (٦) ينظر: قطر الندى ٢٨٥ ، والنحو الوافي ٣١٧/٤
- (٧) الكافية ١٢/١
- (٨) ينظر: النحو الوافي ٣١٨/٤
- (٩) ينظر: المصدر نفسه ٣٢٠/٤

- (١٠) ينظر: مغني اللبيب ٣٧٦/٢
- (١١) النحو الوافي ٣٢٥/٤
- (١٢) الكتاب ٦٣/٣
- (١٣) المصدر نفسه ١٣٤/١
- (١٤) الأصول ١٦٧/٢
- (١٥) المقتضب ٣٧٠/٢
- (١٦) ينظر: شرح الاشموني ٢٩/٤
- (١٧) الكافية ١١١/٢
- (١٨) الجنى الداني ٥٣٨
- (١٩) اللغة العربية معناها ومبناها ١٢٥
- (٢٠) النحو الوافي ٣١٣/٤
- (٢١) ينظر: المصدر نفسه ٣٦٧/٤
- (٢٢) ينظر: التركيب اللغوي ٧٧
- (٢٣) ينظر: همع الهوامع ٢٠٦/١، وشرح المفصل ٤/٩، والنحو الوافي ٣٢٦/٤
- (٢٤) النحو الوافي ٣٢٧/٤
- (٢٥) ينظر: معاني النحو ٤٧/٤، والنحو الوافي ٣٢٢/٤
- (٢٦) ينظر: البلاغة فنونها وافنانها ٣٥٣
- (٢٧) ينظر: المصدر نفسه ٣٥٤
- (٢٨) الكشف ١٣٩/٢، وينظر: البلاغة فنونها وافنانها ٣٥٥
- (٢٩) الكتاب ١٣٤/١
- (٣٠) الجملة العربية ٢٤٧
- (٣١) ينظر: النحو الوافي ٣٣٦/٤
- (٣٢) ينظر: البرهان ١٩٧/٤، ومعاني النحو - فاضل السامرائي ٥٧/٤
- (٣٣) ينظر: المفصل ٦٦/٢
- (٣٤) ينظر: الكتاب ٣٠٥/٢
- (٣٥) ينظر: المقتضب ٥٤/٢

- (٣٦) ينظر: شرح ابن يعيش ٤/٩
- (٣٧) ينظر: الكليات ٤٠٧
- (٣٨) ينظر: معاني النحو ٦٠/٤
- (٣٩) شرح ابن يعيش ٤/٩
- (٤٠) ينظر: الطراز ٢٩٩/٣
- (٤١) مختصر المعاني ٦٠
- (٤٢) النحو الوافي ٣٢٧/٤
- (٤٣) شرح المفصل ٤١/٧
- (٤٤) المقتضب ٥٦/٢
- (٤٥) شرح المفصل ١٥٥/٨
- (٤٦) المصدر نفسه ٤/٩
- (٤٧) الانصاف ٦٢٧/٢
- (٤٨) ينظر: النحو الوافي ٢٦٦/٤
- (٤٩) الكتاب ١٣٤/١
- (٥٠) الكشف ٧٢/٢
- (٥١) الكتاب ٣٠٩/٢
- (٥٢) المقتضب ٥٠/٢ - ٥١
- (٥٣) ينظر: قطر الندى ٩٢
- (٥٤) ينظر: الايضاح ٨٨/١
- (٥٥) ينظر: النحو الوافي ٣٣٣/٤
- (٥٦) ينظر: المصدر نفسه ٣٢٥/٤
- (٥٧) ينظر: الخصائص ١٠٤/١ ، والتركيب اللغوي ٨٨
- (٥٨) ينظر: الكافية ١١١/٣ ، واللغة العربية معناها ومبناها ١١٢
- (٥٩) الكتاب ٢٣٢/٤
- (٦٠) ينظر: التركيب اللغوي ٨٩
- (٦١) الطراز ٢٧٧/٣

- (٦٢) الشرط بان واذا في القرآن ص ٦٠ - بحث في مجلة كلية الآداب بجامعة الرياض - المجلد الرابع - السنة السابعة
- (٦٣) في النحو العربي قواعد وتطبيق ١٢٢
- (٦٤) ينظر: مغني اللبيب ٢٨٠/١
- (٦٥) ينظر: المصدر نفسه ٢٨٠/١
- (٦٦) ينظر: الكتاب ٢٣٤/٢
- (٦٧) مغني اللبيب ٢٤٣/٢
- (٦٨) ينظر: الكتاب ٢٣٤/٢
- (٦٩) المصدر نفسه ٢١٥/٢
- (٧٠) الجنى الداني ٥٣٨
- (٧١) الكافية ١٢٧/٢
- (٧٢) ينظر: قطر الندى ٤٢
- (٧٣) مغني اللبيب ٢٤٣/١
- (٧٤) معاني النحو ٧٦/٤
- (٧٥) ينظر: شرح المفصل ١٥٥/٨
- (٧٦) ينظر: البلاغة فنونها وافتانها ٣٦٥
- (٧٧) ينظر: مغني اللبيب ٢٧٦/١
- (٧٨) ينظر: معاني النحو ٧٨/٤
- (٧٩) شرح المفصل ١١/٩
- (٨٠) مغني اللبيب ٢٣٣/١
- (٨١) في النحو العربي - نقد وتوجيه ٢٩١
- (٨٢) ينظر: التركيب اللغوي ٩٩
- (٨٣) ينظر: مغني اللبيب ٢٣٣/١
- (٨٤) ينظر: النحو الوافي ٣٧٧/٤
- (٨٥) ينظر: معاني النحو ٨٠/٤
- (٨٦) ينظر: المفصل ٢٢٠/٢

- (٨٧) ينظر: مغني اللبيب ٢٣٥/١
- (٨٨) ينظر: شرح ابن يعيش ٢٣/٩
- (٨٩) الجامع الكبير ٢٥٥/١
- (٩٠) البرهان في علوم القرآن ٢٤٢/٤
- (٩١) ينظر: النحو الوافي ٣٨٣/٤
- (٩٢) الكتاب ٩١/٣
- (٩٣) الخصائص ٣٣٠/٣
- (٩٤) دلائل الاعجاز ١٢٧
- (٩٥) المباحث اللغوية في العراق ٤٨
- (٩٦) في النحو العربي - نقد وتوجيه ٢٩٦
- (٩٧) ينظر: النحو الوافي ٣٥٧/٤
- (٩٨) ينظر: في ظلال القرآن ١٤١٢/٩
- (٩٩) ينظر: تفسير الفخر الرازي ٤٤٤/٢١
- (١٠٠) ينظر: في ظلال القرآن ٣١٢٥/٢٤
- (١٠١) في النحو العربي - نقد وتوجيه ٢٩٦
- (١٠٢) المصدر نفسه ٣٠٠
- (١٠٣) ينظر: مجمع البيان ١٢٠/٤
- (١٠٤) ينظر: النحو الوافي ٣٢٦/٤
- (١٠٥) ينظر: المصدر نفسه ٣٥٩/٤
- (١٠٦) ينظر: المصدر نفسه ٣٤٧/٤
- (١٠٧) ينظر: قطر الندى ٩٢
- (١٠٨) ينظر: الكتاب ٢١٧/٤ ، ٦٣/٣
- (١٠٩) ينظر: الخصائص ١٩٦/٢ ، وهمع الهوامع ٦٧/٢
- (١١٠) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٢٤٧/٦
- (١١١) ينظر: تفسير الفخر الرازي ٥٣١/٢٧

المصادر والمراجع :

القرآن الكريم

- الأصول في النحو/ أبو بكر السراج / تحقيق عبد الحسين الفتلي / النجف الأشرف ١٩٧٣م
- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل/ آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي / دار الأميرة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥ م
- الإيضاح في علوم البلاغة/ الخطيب القزويني/ تحقيق لجنة من الأساتذة/ مكتبة المثنى/ بغداد(د.ت)
- البرهان في علوم القرآن/ بدر الدين الزركشي / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم/ ط١ مصر ١٩٧٥م
- البلاغة فنونها وأفنانها / فاضل حسن عباس / دار الفرقان للنشر والتوزيع/ عمان - الأردن ٢٠٠٥م
- التركيب اللغوي للشعر العراقي المعاصر/ مالك يوسف المطليبي/ وزارة الثقافة والأعلام/ بغداد ١٩٨٦م
- التفسير الكبير ومفاتيح الغيب / فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)/ دار إحياء التراث العربي / بيروت-لبنان ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م
- تفسير الكشاف/ أبو القاسم جار الله الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) تحقيق محمد عبد السلام شاهين/ دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ط ٤ ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م
- تفسير مجمع البيان في تفسير القرآن/ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ) / دار المرتضى - بيروت - لبنان ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م
- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور/ عز الدين بن الأثير (ت ٣٦٠هـ) تحقيق عبد الحميد الهنداوي - دار الآفاق العربية للنشر والتوزيع - القاهرة - مصر ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م

- الجملة العربية/ فاضل صالح السامرائي / دار الفكر ط ٣ عمان - الأردن ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م
- الجنى الداني في حروف المعاني / حسين بن قاسم المرادي (ت ١٧٤٩هـ) / تحقيق طه محسن / مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر / جامعة الموصل ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م
- الخصائص/أبو الفتح بن جني / تحقيق محمد علي النجار/ الطبعة الثانية المصورة/ بغداد ١٩٩٠م
- دلائل الأعجاز/ عبد القاهر الجرجاني/ تحقيق محمد رشيد رضا/ دار المعرفة بيروت/ لبنان ١٩٨٤م
- شرح الأشموني/ علي بن محمد ابو الحسن نور الدين / تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد/ مصر - القاهرة ١٩٥٥م
- شرح المفصل / يعيش بن علي بن يعيش (ت ٦٤٣هـ) صححه وعلق عليه مشيخة الأزهر - إدارة الطباعة المنيرية - مصر (د.ت)
- الطراز/ يحيى بن حمزة بن إبراهيم العلوي (ت ٧٤٩ هـ) / تحقيق عبد الحميد الهنداوي / المكتبة العصرية للطباعة والنشر / بيروت - لبنان / ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م
- في ظلال القرآن/ سيد قطب / دار الشروق - القاهرة - مصر ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م
- في النحو العربي نقد وتوجيه/ مهدي المخزومي/ دار الرائد العربي/ بيروت - لبنان ط ٢ - ١٩٨٦م
- قطر الندى /أبو هشام الأنصاري / تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد / القاهرة / ١٩٦٣م
- الكافية في النحو /عثمان بن عمر بن أبي بكر يونس أبو عمرو بن الحاجب (ت ٦٤٦هـ) / تحقيق صالح عبد العظيم الشاعر/ مكتبة البشري - كراتشي ٢٠١١م
- الكتاب/ لسيويه - تحقيق عبد السلام محمد هارون- مصر / ١٩٧٧م
- الكليات/أيوب بن موسى القريني الكفويأبو البقاء (ت ١٠٩٤هـ) تحقيق عدنان درويش / مؤسسة الرسالة بيروت - لبنان

- اللغة العربية معناها ومبناها/ تمام حسان / الهيئة المصرية العامة للكتاب ط ٢- مصر ١٩٧٩م
- مختصر المعاني/ سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت ٧٩٣هـ)/ دار الفكر ، قم ١٤١١هـ
- المفصل في علم العربية / لأبي القاسم جار الله الزمخشري - الدار الجليل-بيروت ١٣٢٣هـ
- المقتضب/ أبو العباس المبرد / تحقيق محمد عبد الخالق عزيمة - القاهرة ١٣٨٦هـ
- معاني النحو/ فاضل صالح السامرائي / مطبعة التعليم العالي - الموصل / ١٩٨٩
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب /ابن هشام الأنصاري / تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة المدني - القاهرة (د.ت)
- النحو الوافي/ عباس حسن / مطبعة دار المعارف / مصر- الطبعة الخامسة - القاهرة ١٩٧٥م
- همع الهوامع / جلال الدين السيوطي/تحقيق عبد السلام محمد هارون/دار البحوث العلمية -الكويت ١٩٧٥م
- الشرط بيان وإذا في القرآن- بحث في مجلة كلية الآداب بجامعة الرياض - المجلد الرابع- ص ٦٠